

T.C.
CUMHURBAŞKANLIĞI
HİMAYESİNDE

II.Uluslararası Selçuklu Kültür ve Medeniyeti Sempozyumu

SELÇUKLULARDA BİLİM ve DÜŞÜNCE

Bildiriler/Proceedings 19-21 Ekim 2011 KONYA



CİLT - 4

ENTELEKTÜEL HAYAT

Editör

Prof.Dr.Mustafa DEMİRCİ
Doç.Dr. Ali TEMİZEL
Doç.Dr. M.Ali HACIGÖKMEN
Yrd.Doç.Dr. Sefer SOLMAZ



















المدارس الحنبلية في بغداد واثرها في الفكر الديني ابان العصر السلجوقي447هـ – 590هـ*



عكاب يوسف جمعة**

المقدمة :

أسهم السلاجقة خلال الحقبة التي حكموا فيها العالم الاسلامي وبالتحديد بعد دخولهم بغداد ، بدعم النشاط الثقافي والحضاري الاسلامي علميا وفكريا من خلال تشجيعهم للمؤسسات التعليمية والثقافية التي تعد المدارس احد ابرز واجهاتها ومن مقومات الحياة الفكرية والعلمية في ذلك العصر ، و يمثل العصر السلجوقي فاتحة عهد جديد في تاريخ تلك المؤسسات حيث فيه نشات اولى المدارس بمعناها الرسمي كمؤسسات تمارس التعليم بوضع منفصل ومستقل عن المساجد وباشراف الدولة ، وكانت نيسابور مقر السلاجقة الاول اولى المحطات التي ظهرت فيها المدارس بشكل شبه رسمي ، وتعد نظامية بغداد التي اسسها الوزير السلجوقي نظام الملك سنة 459هـ في عهد السلطان ملك شاه ، اول مدرسة رسمية شيدت في بغداد واصبحت مثالا يحتذى به في العالم الاسلامي .

وكان قيام النظامية – التي اسست لتحقيق اهداف تعليمية وفكرية يمكن من خلالها دعم السلطة السلجوقية ومنهجها الديني – قد ادى الى جذب كبار العلماء والمثقفين اليها لتحقيق مكاسب عدة ، مما خلق جوا ثقافيا علميا وفكريا نشطت في ظله باقي المذاهب التي انشات لنفسها مدارس لدعم مذهبها ، فضلا عن نشاط المؤسسات العلمية الاخرى كدور العلم والمكتبات .

والبحث يتناول المدارس التي مثلت واجهة علمية وفكرية لواحد من المذاهب الفقهية الاربعة التي نشات وترعرعت في بغداد وبلغت ذروة نضوجها ونشاطها في ذلك العصر وهو المذهب الحنبلي ، الذي اسسه الحنابلة اتباع الامام احمد بن حنبل (164 هـ

* Bağdat'ta Selçuklu Medreseleri ve Selçuklu Çağı Boyunca Dini Düşünceye Etkisi

** Doç. Dr. Okab Yousif JumaahcMusul Üniversitesi / IRAK egabhist@yahoo.com

– 241هـ) وهو مذهب قدر له ان يمارس دورا فكريا في مسار المذاهب السنية الاخرى من خلال اعتماده المنهج النصي او منهج المحدثين القائم على تقديم النصوص (القرآن والسنة) على غيرها من الاصول في استنباط الاحكام الفقهية ومسائل العقيدة ، ومواجهته للتيارات والمذاهب الفكرية التي حاولت اقحام العقل في المسائل العقدية وتقديمه على النصوص ، وما يميز المذهب الحنبلي هو كونه مذهبا فقهيا وعقديا ، وليس كباقي المذاهب التي نزع اتباعها الى الاخذ باراء مذاهب اخرى عقدية غير مذاهبهم الفقهية كما هو الحال بالنسبة للاحناف الذين اخذوا بمذهب المعتزلة والشافعية الذي اخذوا باراء الاشاعرة .

ومن هنا تاتي اهمية دراسة مدارس الحنابلة والدور الذي مارسته في المجال العلمي والفكري في وسط تلك الاجواء التي عاشتها بغداد انذاك من التنافس الفكري الذي ازدادت حدته في العصر السلجوقي حتى بلغ حد الصراع الذي لم يخل من العنف احيانا كثيرة ، يضاف الى ذلك ان الحنابلة لقوا دعما وتاييدا من مؤسسة الخلافة التي وجدت فيهم خير واقوى من يمثل ويدعم منهجها وتوجهها نحو تعزيز المذهب السني وتقوية منصب الخلافة ، حيث شكل الحنابلة قوة لايستهان بها في الشارع البغدادي، في الوقت الذي قدمت فيه السلطة السلجوقية الدعم والتاييد بل التبني للمذاهب ذات المنهجية الوسطية فقها وعقيدة كالشافعية والاشاعرة .

وقد مارس علماء الحنابلة من خلال تلك المدارس نشاطهم التعليمي ، وكان لهم اثرا في الفكر الديني وتفاعلاته من خلال تدريسهم وتخريجهم للعلماء والمثقفين ومن خلال مؤلفاتهم العلمية ومواعظهم ، وأول مدارس الحنابلة أنشأت في بغداد خلال العصر السلجوقي ، منها ما أنشأ بجهد شخصي ومنها ماهو بدعم من الخلافة او من شخصيات لها ارتباط بمؤسسة الخلافة ، وتولى مهام تلك المدارس نخبة من كبار علماء الحنابلة في ذلك العصر .

وتاتي اهمية البحث في مدارس بغداد بشكل عام كون بغداد تمثل ملتقى المذاهب الفقهية والفكرية التي نشأت وازدهرت فيها في ذلك الوقت كالحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والمعتزلة والاشاعرة والصوفية ، مع نضوج المجتمع البغدادي ثقافيا الى جانب تدخل الخلافة والسلطة في ذلك النشاط والتنافس الفكري .

والبحث يحاول تسليط الضوء على دور مدارس الحنابلة في ظل تلك الاجواء الثقافية العلمية والفكرية التي شهدتها بغداد ، معتمدا اسس البحث العلمي ومناهجه المعتمدة في الدراسات التاريخية ، واستقاء المعلومات من مصادرها الاصلية واستقرائها وتحليلها.

نشأة المدارس المستقلة في العراق :

يعد العصر السلجوقي عصر انشاء المدارس الدينية المستقلة في العالم الاسلامي عموما والعراق وبغداد بوجه خاص، واذا كانت هناك مدارس مستقلة سبقت النظامية في الظهور في المشرق الاسلامي في نيسابور وغيرها[1] ، فان المدرسة النظامية تعد اول مدرسة مستقلة بنيت في العراق ، فقد بدأ العمل بها في بغداد سنة 457هـ بتوجيه من الوزير السلجوقي نظام الملك (455هـ–485هـ) في عهد السلطان ملكشاه (465هـ –485هـ) واستغرق العمل بها سنتين حيث افتتحت عام 459هـ[2]، وافتتحت قبل النظامية بشهور مدرسة ابي حنيفة التي بناها ابو سعد المستوفي في بغداد بنفس السنة[3]، واعقب ذلك بناء العديد من المدارس التي عرفت بالنظاميات في اقاليم المشرق الاسلامي[4].

وخصصت المدرسة النظامية للمذهب الشافعي اصلا وفرعا واشترط ذلك لمن يتولى التدريس فيها[5]. وجاء بناء النظامية لتحقيق اهداف دينية وفكرية تبنتها الدولة السلجوقية ، ومنها احياء وتقوية المذهب السني بعد اسقاط الدولة البويهية في العراق عام 447هـ ، ولتقويض دعائمها الفكرية ، ووجدوا ان التعليم هو الوسيلة الفعالة لتحقيق مايبتغونه ، ولعل هذاهو السر وراء عدم انشاء أي مدرسة في بغداد ايام البويهيين ، و السبب الذي جعل المدارس الجديدة تقتصر على العلوم الدينية واللغوية دون العلوم التطبيقية الاخرى[6].

[1] للتفاصيل ينظر: معروف : ناجي ، مدارس قبل النظامية ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، 1973 ، ص8 وبعدها

[2] الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، جمعه الفتح بن علي البنداري (ت بعد 642هـ) ، تحقيق : لجنة احياء التراث العربي، ط3 (بيروت ، 1980م) ص35 ؛ ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، تحقيق دائرة المعارف العثمانية ، ط1 (حيدر آباد،1357هـ-1358هـ)9/245-246 ، 9/65-66 .؛ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ، دار صادر (بيروت ، 1965 ، 1966م) 8/162 ؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر (بيروت ، 1977 م) ، 1/369 ؛ ابن كثير: البداية والنهاية ، دار ابن كثير (بيروت، د ت) 12/140؛ المقريزي: الخطط المقريزية ، تحقيق : محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي ، ط1 (القاهرة ، 1998) 3/436-437 .

[3] ابن الجوزي: المنتظم ، 8/245 ؛ امين ، حسين : المدرسة المستنصرية (بغداد ،1960) ص22-23 .

[4] السبكي : طبقات الشافعية ، تحقيق: محمود محمد الطناحي ، عبدالفتاح محمد الحلو، ط1 ، مطبعة عيسى البابلي الحلبي ، (القاهرة، 1964م) 4/313-314 .

[5] ابن الجوزي : المنتظم ، 9/65-66 .

[6] رؤوف ، عماد عبد السلام : مدارس بغداد في العصر العباسي ، ط1 (بغداد ، 1966) ص8-9 ،12 .



ورغم ان السلاجقة اسهموا بانتعاش المذهب السنى في العراق[7]، الا ان عصرهم لم يخل من التوترات المذهبية والصراع الفكري بين الطوائف السنية الذي وصل الى حد العنف احيانا كما حدث بين الحنابلة والاشاعرة[8] ، وكان نظام الملك قد قلب السياسة الدينية السلجوقية راسا على عقب ، من حنفية اعتزالية في عهد السلطان طغرلبك (ت455هـ) ووزيره الكندري (ت456هـ)[9] ، الى شافعية اشعرية ، بعد بنائه المدرسة النظامية وتخصيصها للمذهب الشافعي اصولا وفروعا ، وهذا التوجه نحو الشافعية رغم كون السلاجقة احناف يشير الى مدى تاثير نظام الملك – الذي كان شافعيا اشعريا – في السياسة السلجوقية[10] .

وتعتبر النظامية من الاثار التاريخية للسلاجقة في العراق ، اذ كان الاهتمام بالتعليم وبناء المدارس من ابرز خصائص هذا العصر[11] ، ويثمن دونالد ولبر ماقام به نظام الملك ويقول انه "قام بمجهودات متواصلة لترويج العلم ونشر الثقافة الدينية"[12] .

واصبح العمل الذي قام به نظام الملك مثلا يحتذى به من قبل الحكام والامراء واصحاب المذاهب فكثر انتشار المدارس في العراق والاقاليم الاسلامية الاخرى ، حتى بلغ عددها في بغداد وحدها عند زيارة ابن جبير لها عام 580هـ نحو الثلاثين مدرسة[13] ، فكان انتشار المدارس في بغداد في عصر السلاجقة من بين ابرز مظاهر الحضارة الاسلامية ، واسهم الى حد كبير في تطوير التعليم

7 امين ، حسين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي (بغداد ، 1965) ص273 .

8 للتفاصيل عن هذا الموضوع ينظر: باخيل ال بابطين ، علي بن محمد: ميراث الازمنة الصعبة ... سنوات الحنابلة في بغداد (مكة المكرمة ، 1425هـ) ص225-257 ؛ علال : خالد كبير : صفحات من تاريخ اهل السنة والجماعة ببغداد 200هـ-500هـ (الجزائر ، د.ت) ص 108 – 132.

9 ينظر : ابن عساكر : تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام ابي الحسن الاشعري، عني بنشره : حسام الدين المقدسي، مطبعة التوفيق (دمشق، 1347هـ) ص108 ؛ ابن الجوزي: المنتظم ، 8/157-158 ؛ ابن الاثير : الكامل ، 10/31-32 .

10 امين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص227 .

11 امين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص218 ، 220 .

12 ايران في ماضيها وحاضرها ، ترجمة : عبد النعيم محمد حسنين ، ص60 ، نقلا عن : امين : تاريخ العراق ، ص219 .

13 ابن جبير : رحلة ابن جبير، تحقيق : حسين نصار ، ط2 ، دار مصر للطباعة (مصر ، 1992) ص283.

ومؤسساته[14] ، وادت هذه المدارس رسالتها العلمية وخلقت حركة ثقافية واسعة في العراق[15] .

وتعد المدارس احد اهم مقومات الحياة الفكرية والعلمية ، وكانت المدارس المذهبية التي نشات في بغداد خلال العصر السلجوقي بمثابة واجهات علمية وفكرية للمذاهب الفقهية لتحقيق اهداف معرفية تتمثل في نشر العلوم الدينية وترصين المذاهب من خلال تخريج علماء متخصصين لكل مذهب يعملون على نشره وتطويره.

ومن بين العوامل التي ساهمت بنشوء المدارس المذهبية هو التنافس والصراع الفكري بين المذاهب ، فقد كان للازمة العقيدية التي عصفت باهل السنة– وبالتحديد بين الحنابلة والاشاعرة– في هذه الحقبة اثر كبير في ظهور المدارس المذهبية ، فاصبح لكل مذهب مدارسه وطلابه وشيوخه ، يدرس فيها المذهب اصولا وفروعا[16] .

وما لبث ان اصبح لهذا الامر ابعادا واهدافا اكبر واوسع من ذلك ، عندما اصبحت ظاهرة بناء المدارس مثار اهتمام رجال الدولة والسياسة ، والتي ارادو من خلالها نصرة اوتبني مذهب معين لتكوين قاعدة فكرية تدعم توجهات الدولة وتناهض خصومها فكريا ، وتنشأ رجالا يحملون عقيدة سليمة وفكر ديني يخدمون من خلاله مؤسسات الدولة ويتولون ادارتها[17] .

خصائص المذهب الحنبلي :

وقد اهتم الحنابلة كغيرهم من اصحاب المذاهب بالتعليم ومؤسساته ؛ سعيا منهم لترسيخ مذهبهم وتكوينه ، وقبل الحديث عن المدارس الحنبلية ، ولفهم

---

[14] ينظر : امين ، حسين : المدارس الاسلامية في العصر العباسي واثرها في تطوير التعليم ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد6 ، لسنة 1978 ، ص5-10، (منشور على الانترنت) ؛ شندب ، محمد حسين : الحضارة الاسلامية في القرن الخامس الهجري ، ط1 (بيروت، 1984) ص56.

[15] اوغلو ، نجاة كوثر: من تراث التركمان الحضاري في العراق ، موسوعة تركمان العراق (منشور على الانترنت بدون ترقيم).

[16] علال ، خالد كبير : الازمة العقيدية بين الاشاعرة واهل الحديث خلال القرنين 5-6 الهجريين ، ط1 (الجزائر، 2005) ص132.

[17] امين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص223-224،225 ،234-235 ؛ وينظر: رؤوف : مدارس بغداد ، ص12 ؛ علال : الازمة العقيدية ، ص132-133 .

دورها واثرها في الفكر الديني لابد من الاشارة هنا الى طبيعة المذهب الحنبلي وخصائصه بايجاز وقدر تعلق الامر بموضوع البحث ، فهذا المذهب نشأ وتكون بشكل تدريجي ومر بمراحل واطوار قبل ان يصبح رابع المذاهب الفقهية السنية ، ولم يؤسسه الامام احمد بن حنبل (ت241هـ) لانه كان محدثا وله فتاوى ومسائل فقهية لم يرغب في تدوينها تورعا ، الا ان اصحابه واتباعه حرصوا على جمعها وتدوينها وشرحها وتبويبها ، ليكونوا منها المذهب الحنبلي[18] ، ويرى باتون ان عدم تبويب احمد بن حنبل لمذهبه وترتيبه قد اوهن من تاثير المدرسة الحنبلية ، وان الحنابلة تركوا فراغا قبل ان يتمكنوا من ان يكشفوا للعالم عن مكنون مدرستهم وروحها وخصائص مبادئها على الصورة التي تحقق لها رجحانا ظاهرا وتاثيرا قويا[19] .

ولعل اهم خصائص المذهب الحنبلي هي كونه مذهب فقهي وعقدي جمع الاصول والفروع ولم يتجه اصحابه الى مذاهب عقدية اخرى كما فعل الحنفية بنزوعهم نحو الاعتزال والشافعية بنزوعهم نحو الاشعرية ، وتميز الفقه الحنبلي بعدم غلقه باب الاجتهاد واعطى للفكر دوره في البحث والتقصي عن الدليل وبناء الاحكام ، وعدم غلقه باب الاجتهاد واعطى للفكروالعقل دوره في البحث والتقصي عن الدليل وبناء الاحكام ، يقول الامام احمد :" لاتقلدني ولاتقلد مالكا ولا الثوري ولا الاوزاعي ، وخذ من حيث اخذوا "[20]، ويقول ابن الجوزي[21]:" ومن التقليد ابطال منفعة العقل لانه انما خلق للتدبر والتامل".

---

[18] ينظر: الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي (بيروت ، د ت) 112/5؛ الشيرازي : طبقات الفقهاء تحقيق: احسان عباس، ط2، دار الرائد العربي (بيروت ، 1981م) ص171 ؛ ابن ابي يعلى : طبقات الحنابلة ، تحقيق :
محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية (القاهرة ، 1952م) ، 12/2-15 ؛ ابن بدران : المدخل الى مذهب الامام احمد ، ص47 ؛ وللتفاصيل ينظر : للباحث : الحنابلة في بغداد 447هـ - 575هـ ، اطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة الموصل ، 2000) ص33-38 .

[19] احمد بن حنبل والمحنة ، ترجمة وتعليق وتحقيق: عبد العزيز عبد الحق ، مطبعة اج بريل (القاهرة، 1958م) ص263-264 .

[20] ابن القيم : اعلام الموقعين عن رب العالمين، جـ 1 ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط1 ، مطبعة السعادة ، (مصر ، 1955 م) ، جـ2 ، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد ، دار الجيل (بيروت ، د ت) 201/2 ، وللتفاصيل ينظر نفس المصدر ، ص168 وبعدها ؛ مدكور، محمد سلام : مناهج الاجتهاد في الاسلام في الاحكام الفقهية والعقائدية ، ط1 (الكويت، 1973م) ص23 .

[21] تلبيس ابليس ، تحقيق : ادارة الطباعة الميرية ، مطبعة الوسام (بغداد ،1983م) ص81 .

ويبرز في الفقه الحنبلي الجانب الاصلاحي الذي احتل مساحة واسع منه ، وميز منهج الحنابلة عن غيرهم ، فكانو اشد المذاهب الاسلامية حربا على البدع [22]، و توسعوا بالاخذ بالذرائع لدرء المفاسد[23] ، ولكون المذهب الحنبلي اخر المذاهب ظهورا وتكوينا فقد استفاد من ارث المذاهب الفقهية الثلاث التي سبقته ، فدرس ابن حنبل فقه ابي حنيفة على تلميذه ابي يوسف ، واخذ فقه مالك عن سقيان بن عيينة ، وتتلمذ على الشافعي وصحبه[24]، فكان فقهه واسعا بلغت مسائله "ستين الف مسالة"[25]، ومنوع النتاج والمحتوى فهو مذهب فقهي عقدي ، ومدرسة في الحديث والسنة والزهد ، ويصف المستشرق الفرنسي لاوست المدرسة الحنبلية بانها تمثل مدرسة قضائية في ميدان اصول الدين وفروض الاخلاق والقانون[26]، واخيرا فقد تميز الفقه الحنبلي بكونه فقه اثري[27] شعلت السنة واثر مساحة واسعة فيه واصلا مهما من اصوله الفقهية بعد القران ، وقد اهتم احمد بن حنبل بالسنة النبوية وجمعها ، واغنى فقهه باثر الصحابة ووصف ابن القيم فتاواه بانها اشبه بقتاوى الصحابة وكانها " تخرج من مشكاة واحدة "[28] ، وبهذ يكون المذهب الحنبلي مذهبا اعتمد المنهج النصي وقدم النصوص على غيرها من الاصول ، ورفض التاويل ، واراد ابن حنبل بفقهه ومنهجهه هذا ان يجمع الامة على كتاب ربها وسنة نبيها ويمنع عنها الخلاف والشقاق الذي بذرته رياح الجدل والتاويل ، سيما في المسائل العقدية التي كانت مثار جدل وخلاف بين الفرق والمذاهب الاسلامية خاصة بعد ظهور الفرق الكلامية واثارتهم لتلك القضايا التي سكت عنها السلف كمسالة خلق القران والصفات الالهية ومتشابه القران ، وموقف الحنابلة من هذه القضايا يتلخص بالوقوف عندها والسكوت عنها ورفض تاويلها اوالكلام والجدل فيها وانها تمر كما جاءت من غير تشبيه ولاتعطيل

[22] مقدمة كتاب باتون : احمد بن حنبل والمحنة ، ص18 .
[23] ينظر : ابن القيم : اعلام الموقعين ، 135/3 ، 173 ؛ ابو زهرة ، محمد : ابن حنبل ، حياته وعصره- اراؤه وفقهه، دار الفكر العربي(د م ،1947م) ص204، 318-324.
[24] ينظر: ابن حنبل : سيرة الامام احمد بن حنبل ، تحقيق : فؤاد عبد المنعم احمد، مؤسسة شباب الجامعة (د م، 1981م) 28/1 وبعدها ؛ ابن الجوزي : مناقب الامام احمد بن حنبل ، ط1 ، دار الافاق الجديدة (بيروت ،1973م) ص22 وبعدها ؛ الجندي ، عبد الحليم : احمد بن حنبل امام اهل السنة، دار المعارف (القاهرة، د.ت) ص47-73 .
[25] ينظر: ابن ابي يعلى: طبقات الحنابلة ، 6/1 ؛ ابو زهرة : ابن حنبل ، ص199 .
[26] مقال : الحنابلة ، دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة : ابراهيم زكي خورشيد وآخرون، ط2 ، دار الشعب (د م ، 1969) 90/16 .
[27] مدكور : مناهج الاجتهاد ، ج2 ، ق1 ، ص672 ؛ ابو زهرة : ابن حنبل ، ص109 .
[28] اعلام الموقعين ، 28/1-29 .

ولانكار ولاتاويل اقتداءا بالسلف الصالح الذين سكتوا عنها وامنوا وصدقوا بها كما جاءت[29]، واخذ بعض الحنابلة بظاهر اللفظ تحرجا عن التاويل[30].

وهذه الموقف والمنهج الذي تبناه الحنابلة دفعهم الى التصدى للتيارات ذات المنهج العقلي التاويلي ويصطدمون معها ويتعرضون لانتقادات كثير في فكرهم ومنهجهم ، فقد وصف المذهب الحنبلي بالتشدد وضيق المنحى[31]، بسبب تقيدهم بالنصوص وانصرافهم عن الرأي والقياس ، وقد دافع بعض المفكرين عن هذا المنهج وبينوا انه اكثر سلامة من المناهج التي تعتمد الرأي الشخصي[32] واتهموا من جهة اخرى بالتشبيه والتجسيم [33] ، وقد دافع الحنابلة عما نسب اليهم من تهم وانكروها وصنفوا في ذلك[34]، ودافع عنهم غيرهم ايضا ومنهم الفخر الرازي(ت606هـ) وقال انهم لم يتكلموا في المتشابهات وامنوا وصدقوا بها وقالوا بان الله تعالى لا شبيه له وليس كمثله شيء ، ومثل هذا الاعتقاد بعيد عن التشبيه[35]. ووقوف الحنابلة بوجه التيار العقلي والتاويل ليس قصورا منهم اواهمالا للعقل ولكنهم قدموا النص عليه ، ولذلك وصف البعض المدرسة الحنبلية بانها حركة رجعية قضت على اهل الفكر[36]، وفي هذا ظلم للحنابلة ومنهجهم العقدي ، فحركة الحنابلة لم تكن غير استصحاب لاصل مهم من اصول التفكير

[29] للتفاصيل عن ذلك ينظر : رسالة الرد على الجهمية والزنادقة لاحمد بن حنبل في : الشرباصي ، احمد : الائمة الاربعة ، دار الهلال (د م ، د ت) ص186-190 ؛ ابن حنبل ،عبدالله بن احمد: السـنة ، تحقيق: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، ط1 ، دار ابن القيم (د م ، 1986م) ج1، ص107 وبعدها ، ج2 ، ص385 وبعدها ؛ اللالكائي : شرح اصول اعتقاد اهل السنة والجماعة ، تحقيق:احمد سعد حمدان ،1/ 156-164 ،262-264 ؛ ابن ابي يعلى: طبقات الحنابلة ، 62/1-63 ، 81/2 وبعدها ،209 ،280 ؛ ابن هبيرة : الافصاح عن معاني الصحاح ، تحقيق: فؤاد عبدالمنعم احمد ، ط1(الدوحة ، 1986م) 14/2 ؛ ابن الجوزي : دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة ممن ينتحل مذهب الامام احمد (رض) ، مطبعة الترقي (دمشق ، 1345هـ) ص26 ؛ ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ، وقف على طبعه وتصحيحه: محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية (القاهرة ، 1952-1953) 151/1-152 .

[30] ينظر : ابن رجب : الذيل ، 1/ 252 .

[31] باتون : احمد بن حنبل والمحنة ، ص237-238 .

[32] وهو راي المستشرق هوتسما في كتابه المنازعات الاعتقادية ، ص95 ، عن : باتون : احمد بن حنبل والمحنة ، ص236 .

[33] ينظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دارالمعارف (القاهرة ، 1966 ، 1968م) 639/8 ؛ ابن ابي يعلى: طبقات الحنابلة ، 353/3 ؛ الفخر الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، راجعه : علي سامي النشار، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1938م) ص66 ؛ ابن الاثير : الكامل ، 308/8-309 ؛ السبكي : طبقات الشافعية -353/3 .

[34] ومنها كتاب الرد على المجسمة لابي يعلى الفراء (ت458هـ) وكتاب نفي التشبيه لابن عقيل . ينظرعنها : ابن ابي يعلى: طبقات الحنابلة ، 205/2 ؛ ابن رجب : الذيل ، 152/1 ، 156 ، فضلا عن كتاب دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي .

[35] اعتقادات فرق المسلمين ، ص66 .

[36] جارالله ، زهدي : المعتزلة (القاهرة ، 1947) ص252 .

الاسلامي وهو القران والحديث[37]، وخلاصة القول في هذا ان منهج الحنابلة مبني على :" الوقوف عند النص وتهوين من شان العقل في العقيدة وتمكين له بقدر في فروع الشريعة ، ومناهضة قوية لكل حركة من شانها ان تسرف في التاويل وان تحمل اللغة اكثر مما تحتمل "[38] ، كما ان الحنابلة وقبلهم جماهير علماء المسلمين في القرون الاولى لايلغون العقل الاعند معارضته للنص ، اذ ان حقيقة الاسلام قائمة على تقديس النص ، وبدون هذا القول يصبح الاسلام كله تابع لامتبوع ... وان تسليط العقل على النقل ابطال للنقل فيصبح لكل زمن دينه ، ولكل مجتمع اسلامه[39] ، واذا كان الحنابلة قد سحبوا لجام العقل في مجال ليس له فيه سلطان كمسائل العقيدة ؛ فان العقلانيين قد الغوا النصوص التي هي الاصل في فهم العقيدة والشريعة .

نشأة المدارس الحنبلية في بغداد واثرها في الفكر الديني :

وبناءا على ماتقدم فقد كان الاهتمام بالتعليم ومؤسساته امرا ضروريا عند الحنابلة ووسيلة مهمة لتكوين مذهبهم ونموه والدفاع عنه واللحاق بمصاف المذاهب الفقهية الاخرى (الحنفي ، المالكي، الشافعي) التي كانت قد قطعت شوطا بعيدا وحققت انتشارا في الاقاليم الاسلامية ، فضلا عن ان العصر السلجوقي شهد تنافسا فكريا بين المذاهب ، وجاء تاسيس المدرسة النظامية في بغداد عام 459هـ وتخصيصها للمذهب الشافعي والاشعري ، وافتتاح مدرسة ابي حنيفة قبلها باشهر[40]، حافزا اخر للحنابلة لانشاء المؤسسات التعليمية المستقلة عن المساجد .

وقد كان لبعض الحنابلة تحفظ على انشاء المدارس كمؤسسات تعليمية مستقلة عن المساجد لسببين ؛ الاول: انهم يرون ان المدارس اصبحت تنافس المساجد وتصد طلبة العلم عنها [41] ، والثاني: ان تخصيص المدارس لمذاهب معينة

[37] محمود ، محمد احمد علي : الحنابلة في بغداد ، ط1 (المكتب الاسلامي ، 1986) ص 150 .
[38] محمود ، الحنابلة في بغداد ، ص187 .
[39] باخيل ال بابطين : ميراث الازمنة الصعبة ... ص258 .
[40] ابن الجوزي : المنتظم ، 9/245-246 ، 9/65-66 .
[41] ينظر: ابن الجوزي : صيد الخاطر ، دار الكتب العلمية (بيروت، د ت) ص362 .

يؤدي الى التعصب المذهبي وحرمان طلبة العلم من الاستفادة منها سيما اذا وضعت لها شروط تقيد الدارسين فيها [42].

وعلى الرغم من ذلك فقد سعى الحنابلة لبناء مدارس خاصة بهم في بغداد منذ العصر السلجوقي (447هـ-590هـ) ولم يكن لهم مدارس قبل ذلك ، اذ بدات ومنذ تاسيس النظامية ظاهرة انشاء المدارس الخاصة بالمذاهب تنتشر في بغداد.

وللحنابلة حضور ونشاط تعليمي في بغداد خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين[43] وقبل نشوء المدارس ، حيث كان لهم مدارس مسجدية يدرسون فيها العلوم الدينية ، قدر عددها خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري نحو احد عشر مسجدا[44].

ودرس كبار علماء الحنابلة في جوامع الدولة الرسمية في بغداد وهي جامع المنصور بالجانب الغربي ، وجامع المهدي وجامع القصر بالجانب الشرقي من بغداد[45]، وجامع المنصور يسميه باخيل ال بابطين " قلب المؤسسة العلمية الحنبلية "[46].

وخلال القرنين السادس والسابع الهجريين اتسعت مجالس العلم الحنبلية وفي مختلف العلوم الدينية ، وازدادت مؤسساتهم التعليمية المتمثلة بالمساجد حتى بلغت(22) مسجدا[47]. كان لها الدور الكبير في نشر فكر المذهب الحنبلي في بغداد.

اما بالنسبة للمدارس فلم يكن للحنابلة مدارس مستقلة عن المساجد في بغداد حتى نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الهجري ، وتعد بغداد اول

[42] وهو راي الوزير الحنبلي ابن هبيرة (ت560هـ) في اشارة الى شروط الدراسة والتدريس في المدرسة النظامية ، ينظر : ابن رجب : الذيل ، 280/1 ؛ العليمي : المنهج الاحمد في تراجم اصحاب الامام احمد ، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، ط1 ، مطبعة المدني (القاهرة ، 1963 – 1965) 307/2 .

[43] للتفاصيل ينظر : علال : نشاط الحنابلة التعليمي والعلمي في بغداد بين سنتي 241هـ-500هـ (بحث منشور على الانترنت) .

[44] مقدسي، جورج : رعاة العلم في بغداد ، ترجمة: احسان عباس ، مجلة الابحاث (بيروت ، 1961) مج14،ج4، ص500 ، عن علال : عن: علال ، خالد كبير : الحركة العلمية الحنبلية واثرها في المشرق الاسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (اطروحة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، 2003) ص5.

[45] ينظر على سبيل المثال: ابن ابي يعلى : طبقات الحنابلة ، 2/ 231، 234،238، 243،244 ؛ ابن الجوزي : المنتظم ، 89/9 ؛ ابن رجب : الذيل ، 10/1 ، 32-33؛ علال : الحركة العلمية الحنبلية ، ص6-8 .

[46] ميراث الازمنة الصعبة ... سنوات الحنابلة في بغداد ، ص249.

[47] للتفاصيل ينظر: علال : الحركة العلمية الحنبلية ، ص137-153 ، 180-184 .

مدينة اسس فيها مدارس للحنابلة خلال العصر السلجوقي حيث توالى بناء المدارس الخاصة بالمذهب ، والتي بلغ عددها خلال القرنين السادس والسابع الهجريين نحو(14) مدرسة[48] ، وهو عدد ليس بالقليل بل يبين ان الحنابلة كان لهم نصيب وافر من المدارس في بغداد التي بلغ عددها عند زيارة ابن جبير لها عام 580هـ نحو ثلاثين مدرسة[49] ، ويشير الى قوة دورهم الفكري ونشاطهم التعليمي في هذه المرحلة .

وفيما يلي ذكر لمدارس الحنابلة في بغداد واثرها في الفكر الديني خلال العصر السلجوقي :

مدرسة ابى سعيد المخرمي :

وهي اول واقدم مدرسة للحنابلة في بغداد والعالم الاسلامي ، بناها الفقيه ابوسعد المخرمي (ت513هـ) بمنطقة باب الازج في الجانب الشرقي من بغداد [50] . ولايعرف بالتحديد تاريخ بناء هذه المدرسة ، سوى انها اول مدرسة حنبلية في المشرق الاسلامي ، وانها بنيت نهاية القرن الخامس الهجري او مطلع القرن السادس الهجري [51] ، بناءا على تاريخ وفاة مؤسسها ابي سعيد المخرمي (513هـ) .

واهمية هذه المدرسة واثرها الفكري تاتي من خلال مكانة مدرسيها العلمية ومنهجهم الديني ، فمؤسسها هو القاضي ابو سعد المبارك بن علي بن الحسين (446هـ–513هـ) وهو فقيه حنبلي زاهد معروف ، تفقه على كبار علماء الحنابلة في عصره ،امثال القاضي ابي يعلى الفراء (ت458هـ) وسمع الحديث ، وله دور

[48] علال : الحركة العلمية ، ص198.

[49] ابن جبير : رحلة ابن جبير، ص283.

[50] ابن الجوزي : المنتظم ، 216/9 ؛ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، 94/9 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ، (345 هـ-447 هـ) ، دراسة وتحقيق: جنان جليل محمد ، الدار الوطنية ، (بغداد، 1990) ، ط1 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية (الدكن،1951م) 88/8-89 ؛ ابن رجب : الذيل ، 166/1 ؛ الذهبي : سير اعلام النبلاء ، تحقيق: شعيب الارنؤوط ، ط4، مؤسسة الرسالة (بيروت ، 1986م) 450/20 ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، 185/12 ؛ العليمي : المنهج الاحمد ، 214/2-215 ؛ رؤوف : مدارس بغداد ، ص140؛ علال : الحركة العلمية ، 198. باب الازج : وهي من كبرى محال الحنابلة في بغداد ويسكنها عدد كبير من العلماء والصالحين معظمهم على مذهب احمد . السمعاني : الانساب ، تقديم وتعليق: عبدالله عمر البارودي ،ط1 ، دار الجنان (بيروت ، 1988 م) 119/1 ؛ ابن الاثير : اللباب في تهذيب الانساب، مكتبة المثنى (بغداد ، د ت) ص45.

[51] مقدسي، جورج : مؤسسات العلم في بغداد ، ترجمة: احسان عباس ، مجلة الابحاث (بيروت ، 1961) مج14،ج3، ص315 ، عن :علال : الحركة العلمية الحنبلية ، ص199.

علمي حيث افتى ودرس وناظر وله كتب كثيرة لم يسبق الى مثلها ، تولى نيابة قضاء باب الازج ، وصف في عمله بانه عادلا محمود السيرة[52] ، واثنى ابن ابي يعلى على علمه وديانته[53] ، وقال عنه ابن الفوطي[54] :" كان فقيها فاضلا عالما ثقة ، اشتغل بالفقه حتى برع ودرس وافتى ".

وكان المخرمي ذا منهج صوفي ترك تاثيره على مدرسته وعلى احد كبار تلاميذه الشيخ عبد القادر الكيلاني (ت561هـ) ، الذي تسلم المدرسة بعد وفاته وحملت اسمه واخذت تسمى مدرسة الجيلي[55] .

وللكيلاني اثره في الارتقاء بهذه المدرسة وتفعيل دورها العلمي والفكري ، لما كان له من مكانة علمية وماحصل عليه من شعبية واسعة بين جماهير بغداد وتاثير منهجه الصوفي فيهم من خلال مواعظه و دروسه في الزهد والعقائد .

قدم الكيلاني الى بغداد سنة 488هـ وتفقه على كبارفقهاء عصره كابن عقيل (ت513هـ) وابي الخطاب الكلوذاني (ت 510هـ) وبرع في المذهب فروعا واصولا وفي والخلاف ودرس القرآن حتى اتقنه وسمع الحديث[56] .

ثم اتجه الكيلاني نحو الزهد والتصوف ، حيث صحب جماعة من المتصوفة واخذ عنهم العلم ومنهم الشيخ ابو حماد بن المسلم الدباس وتتلمذ عليه قرابة عشرون ومنهجه ، فلازم الانقطاع والخلوة والمجاهدة ، ثم التحق بعد ذلك بمدرسة ابي سعيد المخرمي ، ونما عنده اتجاهه الصوفي وتتلمذ عليه ولبس الخرقة[57] .

لتبدأ من هنا رحلته في تكوين اول واكبر مدرسة صوفية في بغداد والعالم الاسلامي مارست تاثيرا اصلاحيا قويا في نفس جمهور المسلمين الى وقتنا الحاضر ، وليصبح علما من اعلام الزهد والتصوف .

---

52 ابن الجوزي : المنتظم ، 216/9؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، 88/8-89 ؛ ابن رجب : الذيل ، 166/1 ؛ ابن كثير : البداية ، 185/12 ؛ العليمي : المنهج الاحمد ، 213/2-214 .

53 طبقات الحنابلة ، 258/2 .

54 الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة ، تحقيق: مصطفى جواد، عنيت بطبعه المكتبة العربية (بغداد ، 1932م) ص138 ، عن : رؤوف : مدارس ، ص141.

55 سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، 266/8 ؛ ابن رجب : الذيل ، 166/1؛ الذهبي : سير ، 441/20 ؛ ابن كثير : البداية ، 185/12، 252؛ العليمي : المنهج ، 215/2 .

56 ابن رجب : الذيل ، 290/1-291 ؛ الذهبي : تاريخ الاسلام ، تحقيق : عمر عبد لسلام تدمري ، ط2 (بيروت ، 1993) ج39 ، ص 86 ؛ الشطي ، جميل : مختصر طبقات الحنابلة ، مطبعة الترقي (دمشق ، 1239) ص34 .

57 ينظر : الذهبي : سير ، 444/20 ؛ الشطي : مختصر ، ص34.

وانتقال الكيلاني وتسلمه مدرسة المخرمي بعد وفاته كان هو الاخر نقطة تحول في حياته وفي تاريخ هذه المدرسة ، حيث تول امر هذه المدرسة وجلس للتدريس فيها منذ عام 520هـ ، وبرع في مجال التدريس والوعظ ، فدرس ووعظ بها مايقرب من اربعين عاما ، والى جانب الوعظ والتدريس كانت للكيلاني مؤلفات قيمة في التوحيد والعقائد والوعظ منها كتاب الغنية وفتوح الغيب وغيرها[58] .

وصار للكيلاني مكانة علمية وشهرة واسعة واثنى عليه عليه علماء عصره وكتاب سيرته واشاروا الى تاثيره الفكري في جماهير بغداد وطلابها ، وشدة اقبالهم على مجالسه ، يقول ابن الجوزي[59] :"وحصل له القبول التام بين الناس ، واعتقدوا ديانته وصلاحه وانتفعوا بكلامه" ، ونعته الذهبي بـ "الامام العالم الزاهد شيخ الاسلام علم الاولياء محي الدين ... "[60]، وقال عنه ابن رجب[61]:" وظهر الشيخ عبد القادر وجلس للوعظ وعكف الناس عليه وانتصر به اهل السنة رحمه الله تعالى". وكان الناس يعظمونه لشدة تمسكه بدينه عقيدة وسنة وسلوكا واخلاقا ، ولهذا يقول عنه تلميذه الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي (ت620هـ) :"... ولارأيت احدا يعظم لاجل الدين اكثر منه"[62] . وقد حققت مجالسه تلك غاياتها الاصلاحية في توجيه الناس وارشادهم نحو العقيدة السليمة والاخلاق القويمة فكان يتوب في مجلسه خلق كثير ، ويسلم عنده اليهود والنصارى[63]، ونقل عنه انه قال:"أراد اللَّه منّي منفعة الخلْق، فإنّه قد أسلم على يدي أكثر من خمسمائة ، وتاب عَلَى يدي من العَيّارين والمشّالحة أكثرُ من مائة ألف، وهذا خيرٌ كثير"[64] .

ومن مظاهر ونتائج ذلك التاثير شدة اقبال الناس وطلبة العلم والعلماء على مجالس وعظه ودروسه حتى ضاقت بهم المدرسة ، فاخذ يجلس خارجها عند

[58] ابن الجوزي: المنتظم ، 219/10 ؛ ابن كثير: البداية ، 252/12 ؛ رؤوف: مدارس بغداد ، ص142 ؛
Laoust , H : Le Hanbalism sous Caliphat in Baghdad(241-656), R.E.I. (Paris 1959) p: 111 .

[59] المنتظم ، 219/10 .
[60] سير ، 439/20 .
[61] الذيل ،176/1 .
[62] الذهبي : العبر ، 36/3 .
[63] ينظر: ابن الجوزي: المنتظم ، 219/10 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، 264/8-265.
[64] الذهبي : تاريخ الاسلام ،39 / ص96 .

سور بغداد في رباط له هناك ، ثم عمل على توسيع المدرسة ، ولشدة اهتمام الناس بها واقبالهم عليها فقد اعانوه على ذلك وقدموا كل مايستطيعون من الجهد والمال ، وساهم بذلك الاغنياء وعمل بها الفقهاء ، وانتهى العمل بها عام 528هـ فعاود التدريس فيها والوعظ والفتوى وقصده العلماء والصالحين وطلبة العلم من مختلف الاقاليم[65]. ولقبه ابن العماد بـ:" معلم العراقين "[66]، فكان يحضرمجالسه الالاف، فقد روي عنه انه قال:" وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة يسمعون كلامي، ثمّ تَسَامَع النّاس بي، وازدحم عليّ الخلْق، حتّى صار يحضر المجلسَ نحوٌ من سبعين ألفا"[67].

وكان غزير العلم متنوع التخصص ، يدرس في اليوم 13 درسا في مختلف العلوم الدينية كالحديث والفقه والخلاف والاصول والتفسير والقراءات والنحو[68] . وبذلك ارتقت مدرسته هذه الى درجة من الرقي فاقت الكثير من مدارس بغداد الاخرى ، وصارت من المعاهد العلمية المعدودة في العالم الاسلامي يقصدها العلماء والطلبة[69].

ويعد الكيلاني مؤسس اول طريقة صوفية نجحت بقيامها على اسس عقدية سليمة تبناها المذهب الحنبلي الذي ينتمي اليه، يقول المستشرق الفرنسي لاوست[70]:" ونجاح القادرية يدل على انتمائها الصادق للاسلام والسلوك الذي يدل على الاستقامة ".

وجاء تاثير مدرسة الكيلاني واهمية دورها من خلال كونها مدرسة تحقق فيها الجانب المعرفي (الديني) والتربوي (الاخلاقي) وبمنهج يؤثر في النفوس ، فاسهمت بتثقيف وتنمية الفكر الديني والخلقي لدى جماهير بغداد وطلبتها الوافدين اليها من مختلف الاقاليم ، ويرى بروكلمان ان الطرق الصوفية كان لها اثر

65 ينظر: ابن الجوزي: المنتظم ، 219/10 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، 264/8-265 ؛ ابن رجب: الذيل ، 290/1-291 .

66 شذرات الذهب ، تحقيق : محمود الارناؤوط ، دار ابن كثير، ط1 (دمشق – بيروت ، 1986) 6 /332.

67 الذهبي : تاريخ الاسلام ، 39 / 96 .

68 التونسي : محمد الامين الكيلاني ، رياض البساتين بهامش كتاب بهجة الاسرار للشطنوفي .عن: رؤوف : مدارس ، ص144.

69 رؤوف : مدارس بغداد ، ص144 .

70 Laoust: Le Hanbalism , P: 111 .

واضح في تهذيب العامة ، حيث تاثروا بالمشايخ الصوفية اكثر من تاثرهم بالفقهاء"[71] .

ونتفق مع القول ان الكيلاني نجح الى حد ما بتجاوز نظرة الشك والريبة الموجودة عند اتباع المذهب الحنبلي – ممن عرفو بالزهد والتقلل – في اتباع الصوفية ، فكان ظهور شخصية الكيلاني عاملا للربط بين المتناقضات[72] ، وفي هذا السياق عرف عن الكيلاني انفتاحه على المذاهب الفكرية الاخرى ، واستطاع ان يجمع بين مدارس متعددة فكان الانفتاح على الاخر والتسامح مع المختلف من اهم خواص فكره وسلوكه وعقيدته وكان على حوار ايجابي مع مختلف الديانات[73] ، ووفق ظهوره بين الطوائف السنية وبالتحديد بين الحنابلة والاشاعرة وانقذ التصوف من الاحتكاكات القائمة بينهما[74] ، وفي هذا يقول ابن الجوزي[75] :" فتشبث به اهل السنة وانتصروا بحسن اعتقاد الناس به"، كما كان منهج الكيلاني عامل ربط بين الفقه والتصوف حيث كان فقيها صوفيا جمع في مجالسه الفقهاء ، ولهذا ترى الباحثة الفرنسية جاكلين شابي ان الشيخ عبد القادر كان احد اهم من توسط بين الحركة الصوفية والفقهاء في القرن السادس الهجري[76] . وربما لذلك كله لقب بـ:" مجمع الفريقين"[77] .

ولمدرسة الكيلاني تاثيرها من خلال كبار العلماء الذين تخرجوا منها وتلمذوا عليه ونشروا علمهم وفكرهم في الاقاليم وهم كثر ، يقول كاتب سيرته

71 تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه امين و منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، ط5 (بيروت ، 1968) ص481-482 .
72 باخيل ال بابطين : ميراث الازمنة الصعبة... ، ص273.
73 البرزنجي ، عشتار : ملف عن الشيخ عبد القادر الكيلاني ، فنلندا (منشور على الانترنت).
74 التل ،عمر سليم: متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري ، دراسة تاريخية ، دار المامون للنشر ، ط1 (عمان،2009)ص105.
75 المنتظم ، 7/10 .
76 عبد القادر الكيلاني بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الادبية ، ترجمة: حسن سحلول ، مجلة التراث العربي ، العدد70 ، السنة18 (دمشق ، 1988) عن: التل : متصوفة بغداد ، ص115 .
77 ابن العماد : شذرات الذهب ، 332/6.

الشطنوفي[78]:" وكان يكتب في مجالسه 400 محبرة عالم وغيره" ، ويقول ابن العماد[79]:" ... وتلمذ له اكثر الفقهاء في زمنه" .

واستمرت هذه المدرسة تؤدي دورها بعد وفاة اشهر مدرسيها الكيلاني وبنفس الاسلوب والتوجه ، حيث تسلمها اولاده واحفاده وابرزهم الشيخ عبد الوهاب (ت593هـ) الذي درس بها في حياة والده ثم تسلمها بعد وفاته ، وكان ذا منزلة علمية عالية[80] .

ولازالت المدرسة باقية الى يومنا هذا في بغداد باسم جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وتحتوي على مكتبة علمية قيمة بدأت كخزانة كتب نفيسة حافلة بالنوادر من المؤلفات والتصانيف وضع نواتها مؤسس المدرسة ابو سعيد المخرمي ، ولايزال قسم من هذه الكتب موجودا في مكتبة المدرسة حتى اليوم[81] ، واوقف عليها بعض اهل العلم كتبهم امثال المقريء النحوي ابو الحسن علي بن عساكر البطائحي (ت572هـ)[82] ، وبذلك تكون هذه المدرسة اطول المدارس عمرا واولها انشاءا"[83] .

مدرسة ابي شجاع :

وهي المدرسة التي بناها بهرام بن بهرام ابو شجاع البيع (520هـ) عند باب كلوذان بباب الازج ، واوقف قطعة من املاكه على من بها من الفقهاء ، وهو من اثرياء بغداد ، وممن سمع الحديث[84] ، والمعلومات عن هذه المدرسة قليلة

[78] بهجة الاسرار ، ط1 (القاهرة ، 2001) ص202 ؛ ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ط1 ، دار الكتب العلمية (بيروت ، 1996) ج2 ، ص70 .

[79] شذرات الذهب ، 332/6 ؛ وعن العلماء الذين تخرجوا من مدرسة الكيلاني وتلمذوا عليه ينظر: رؤوف مدارس بغداد ، ص151-153 .

[80] ينظر: ابن رجب : الذيل ، 388/1-390 ؛ الذهبي: تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام ، تحقيق : بشار عواد معروف ، شعيب الارنؤوط ، صالح مهدي عباس، ط 1، مؤسسة الرسالة ، (بيروت، 1988م) (حوادث 631هـ -640هـ) ص156-159 .

[81] رؤوف : مدارس بغداد ، ص153 .

[82] ابن رجب : الذيل ، 336/1-337 .

[83] علال : الحركة العلمية الحنبلية ، ص201 .

[84] ابن الجوزي : المنتظم ، 262/9 ؛ ابن كثير : البداية ، 197/12 . وباب كلوذان تشمل حاليا منطقة الباب الشرقي في بغداد . رؤوف : مدارس بغداد ، ص155 .

ولاتعرف عنها اخبار اخرى ، ويبدو انها ثاني مدرسة اسست للحنابلة في بغداد[85] .

مدرسة الابرادي :

وهي من مدارس الحنابلة في بغداد ، بناها الفقيه ابو البركات احمد بن علي الابرادي (ت531هـ) بمحلة البدرية ، وهي في الاصل دارا له فجعلها مدرسة للحنابلة ، وهو فقيه حنبلي زاهد سمع الحديث ، وتفقه على ابن عقيل (ت513هـ) وصحب علي بن المبارك ابن الفاعوس الزاهد (521هـ)[86] ، وهي كسابقتها لم يتوفرعنها وعن مدرسيها الا القليل من المعلومات ، ويبدو انها تركت بعد وفاة مؤسسها[87] .

مدرسة ابي حكيم النهرواني :

بنيت هذه المدرسة بمحلة باب الازج كبرى محلات الحنابلة في بغداد الشرقية ، بناها الفقيه ابو حكيم النهرواني البغدادي الحنبلي (556هـ) وسكن بها وجعلهامدرسة للعام والعبادة ، وسلمت بعد وفاته الى تلميذه ابن الجوزي(597هـ)[88] .

ومؤسس المدرسة من علماء الحنابلة المعروفين وهو ابو حكيم ابراهيم بن دينار النهرواني سمع الحديث من ابي الخطاب الكلوذاني وغيره ، وتفقه على ابي سعد بن حمزة ، وكان عالما بالفقه والفرائض والخلاف وله فيها تصانيف، ووصف بالزهد وحسن الديانه ، وفوضت له في اخر ايامه المدرسة التي بناها ابن الشمحل

---

85 علال : الحركة العلمية الحنبلية ، ص201 .

86 ابن الجوزي : المنتظم ، 70/10 ؛ وينظر: ابن رجب : الذيل ، 188/2 ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ7 ، تحقيق : احسان عباس ، دار صادر (بيروت ، 1969) 323/7. والبدرية محلة بالجانب الشرقي من بغداد نسبة الى باب بدر احد ابواب دار الخلافة ، وهي حاليا تشمل المنطقة الملاصقة لسوق الشورجة من جهة الغرب . رؤوف : مدارس بغداد ، ص156 .

87 رؤوف : مدارس بغداد ، ص157 .

88 ابن الجوزي : المنتظم ، 201/10؛ وينظر: ابن رجب : الذيل ، 239/1 ؛ الذهبي : المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ، تحقيق: مصطفى جواد ، مطبعة الزمان (بغداد ، د ت) 203/2 ؛ ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب ، تحقيق: مصطفى جواد ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، المطبعة الهاشمية (دمشق ، 1962، 1963،1965، 1967م) ج4، ق3، ص582 .



بالمامونية ودرس بها ، وتلمذ على ابي حكيم النهرواني عدد من كبار العلماء ومنهم ابن الجوزي الذي عمل معيدا في مدرسته قبل وفاته[89] .

مدرسة ابن الشمحل :

وهي ايضا من المدارس الحنبلية التي بنيت بالمامونية بمنطقة باب الازج بالجانب الشرقي من بغداد ، بناها ابو القاسم عمر بن ثابت بن الشمحل البغدادي(561هـ) وخصصها للحنابلة بحدود سنة 556هـ ، وتولى التدريس فيها الفقيه الزاهد ابو حكيم النهرواني السابق الذكر ، الذي توفي بعد شهرين فسلمت المدرسه الى تلميذه المؤرخ الواعظ ابن الجوزي[90] .

تفقه في هذه المدرسة عدد من العلماء ومنهم الفقيه الوعظ ابو غالب هبة الله بن عبدالله السامري البغدادي (598هـ)[91] ، ويذكر ابن الجوزي ان مؤسس المدرسة ابن الشمحل قبض عليه سنة 561هـ وصودرت امواله وبيعت مدرسته واخذت خزانة كتبها[92] ، ويبدو من خلال ذلك ان المدرسة لم تعمرطويلا ، ويرجح البعض انها بقيت الى نهاية القرن السادس الهجري[93] .

مدرسة ابن البل :

وهي المدرسة التي بناها للحنابلة ابو المعالي هبة الله بن الحسين المعروف بابن البل بمحلة الريان بالقسم الشرقي من بغداد[94] ، ودرس فيها كبارعلماء الحنابلة ومنهم القاضي محمد بن محمد بن الحسين بن محمد ... بن ابي خازم الفراء (ت560هـ) والمسمى بابي يعلى الصغير – تشبيها له بجده القاضي ابي يعلى الفراء(ت458هـ) – ، حيث كان فقيها بارعا في المذهب ، افتى ودرس وله حلقة للمناظرة بجامع القصر وبرع فيها حتى صار انظر اهل زمانه ، واعرفهم باختلاف

[89] ابن رجب : الذيل ، 239/1 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، 236/8 ؛ العليمي : المنهج ، 277/2-278 .
[90] ابن الجوزي : المنتظم ، 201/10 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، 236/8 ؛ ابن رجب : الذيل ، 239/1 ؛ ابن كثير : البداية ، 12/ 245 . والمامونية هي اكبر محال القسم الشرقي من بغداد ، نشات حول القصر الذي سكنه الخليفة المامون على شاطيء دجلة فنسبت اليه . رؤوف : مدارس بغداد ، ص158 .
[91] ابن رجب : الذيل ، 241/1 .
[92] المنتظم ، 218/10 ؛ الذهبي : تاريخ ، حوادث (561-571) ص104 .
[93] رؤوف : مدارس بغداد ، ص159 .
[94] ابن الجوزي : المنتظم ، 213/10 ؛ ابن رجب : الذيل ، 245/1 ، 302.

الفقهاء وله في الخلاف تصانيف ، فكان فقيه العصر ظهر علمه في الافاق ، وتلمذ على يديه الكثير[95] .

ودرس فيها ايضا الفقيه الواعظ احمد بن عمر بن الحسين القطيعي (563هـ) وهوممن تفقه على القاضي ابي يعلى الصغير السابق الذكر ، وبرع في الفقه وافتى وناظر ووعظ ، ودرس بمدرسة ابن البل ايضا وتلمذ عليه الكثير[96] ، ومع علو شان مدرسي هذه المدرسة الا ان اخبارها قليلة ونادرة[97] .

مدرسة ابن هبيرة :

وهي اول المدارس الحنبلية التي انشأت برعاية من الدولة او من جهة رسمية ، حيث انشأ هذه المدرسة الوزيرعون الدين يحيى بن هبيرة (560هـ) سنة 557هـ بمحلة باب البصرة بالجانب الغربي من بغداد ، واوقف لها الاوقاف والجرايات وعين بها الفقهاء[98] ، وهي اول مدرسة بالجانب الغربي ، ولم يشرابن جبيرعند زيارته لبغداد سنة 580هـ الى وجود مدرسة بالجانب الغربي ، وقال واصفا بغداد:" ... والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية "[99]، مما يعني عدم بقاء المدرسة الى هذا الوقت .

[95] ابن رجب : الذيل ، 245/1 -246 ؛ العليمي : المنهج ، 283/2-285 .
[96] ابن رجب : الذيل ، 301/1-302 .
[97] رؤوف : مدارس بغداد ، ص159؛ علال : الحركة العلمية ، ص202 .
[98] ابن الجوزي : المنتظم ، 213/10 ؛ ابن الاثير : الكامل ، 321/11 ؛ ابن الفوطي : تلخيص ، ج4، ق3 ، ص581 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 240/8 ؛ ابن رجب : الذيل ، 286/1 ؛ ابن كثير : البداية ، 245/12 . ومحلة باب البصرة نسبة الى احد ابواب بغداد وهو باب البصرة الذي نشأت عنده ، وقد تطورت هذه المحلة واصبحت من كبرى محال الجانب الغربي من بغداد بعد الكرخ ، وبها جامع المنصور ، وموقعها اليوم في قرية الوشاش . رؤوف : مدارس بغداد ، ص162-163 .
[99] رحلة ابن جبير ، ص283 .

وتعد محلة باب البصرة من محال السنة الكبرى ببغداد[100] ، ومعظم اهلها حنابلة ، ولهم فيها مساجد[101] ، وهذا مادعى الوزير ابن هبيرة لانشاء مدرسة للحنابلة بها[102] .

واهمية هذه المدرسة تكمن في كونها اول مدرسة رسمية تؤسس بدعم من الدولة ، مما يشير الى مكانة الحنابلة واهمية دورهم في هذه المرحلة ، فضلا عن ان مؤسسها كان شخصية سياسية وادارية تحظى بمكانة مرموقة لدى الخلافة ، وزر للخليفتين المقتفي والمستنجد[103] ، والى جانب ذلك وهو المهم فان ابن هبيرة كان شخصية لها دورها العلمي والفكري ، فهو محدثا وفقيها على مذهب الامام احمد ، تفقه على كبار علماء عصره ودرس القران والنحو واللغة ، وصنف كتابا في الحديث وهو كتاب الافصاح في معاني الصحاح بعشر مجلدات ، وكان محبا للعلم والعلماء يجمعهم ويجالسهم ويبرعليهم[104] ، ووصفه ابن الاثير بانه كان دينا خيرا عالما[105] ، وخوطب بالوزير العالم العادل عون الدين جلال الاسلام ... [106] ، مما يشير الى مكانته ودوره الديني .

وعرف عن ابن هبيرة سلامة منهجه وحرصه على والتقريب بين المذاهب وازالة بذور الفرقة الانقسام ، وكان "يجالس الخليفة المستنجد للنظر في تقرير قواعد الدين واصلاح امر المسلمين"[107] ، وقد تضمن كتابه الافصاح شرح صحيحي مسلم والبخاري والمسائل المجمع عليها والمختلف فيها بين الائمة الاربعة[108] ،

---

100 ابن الفوطي : تلخيص ، ج4، ق3 ، ص581 .

101 ينظر: ابن ابي يعلى ، طبقات الحنابلة ، 238/2 ، 244 .

102 رؤوف : مدارس بغداد ، ص163 .

103 ينظر لذلك : الاصفهاني: خريدة القصر، ج1 (القسم العراقي) ص97-99 ؛ ابن الفوطي : تلخيص ، ج4، ق2 ، ص988-989 ؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان ، 231/6 ؛ الذهبي: سير ، 426/20-427 ؛ ابن رجب: الذيل ، 251/1 ؛ وللمزيد ينظر: فهد ، بدري محمد : الوزير العالم ابن هبيرة ، مجلة الاقلام ، العدد الرابع ، لسنة 1967 ، ص55-59 . وللباحث : الحنابلة في بغداد ، ص150-154 .

104 ابن الجوزي : المنتظم ، 214/10-215 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 256/8-261 ؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان ، 231/6-234 ؛ الذهبي : المختصر المحتاج اليه ، 248/3 ، سير ، 426/20 ؛ ابن رجب : الذيل ، 251/1-252 ، 256 ، 260 .

105 الكامل ، 321/11 . وترجم له العليمي ترجمة طويلة في كتابه المنهج الاحمد اشار فيها الى ديانته وعلمه ودوره وسلامة عقيدته ، 286/2-294.

106 ابن رجب : الذيل ، 253/1 .

107 ابن الجوزي : المنتظم ، 214/10 ؛ الذهبي: سير ، 427/20.

108 ابن رجب : الذيل ، 252/1 ، وينظر كتابه الافصاح وهو مطبوع بجزأين ، وقد صنف ابن الجوزي كتابا سماه المقتبس من الفوائد العونية ضمنه الفوائد التي سمعها من الوزير عون الدين ابن هبيرة . ابن رجب : الذيل ، 253/1.

وحث فيه على المحافظة على العقيدة السليمة والاقتداء بالسنة النبوية وازالة البدع ومحاربتها[109] ، ونال هذا الكتاب شهرة واسعة واستنسخ ووضعت نسخة منه في خزانة المستنجد ، وبعث بنسخ اخرى الى امراء الاقاليم الاسلامية ومنهم السلطان نور الدين محمود[110] .

وله مجالس علمية في الحديث والتفسير والوعظ يحضرها كبار ولاة الدين والدنيا والاعيان والاماثل[111] ، ويجتمع فيها علماء من المذاهب الاربعة والنحويين وغيرهم[112] ، ولديه نزعة نحو الزهد والتصوف والدعوة للاصلاح ، فقد صحب منذ حداثته الواعظ الزاهد محمد بن يحيى الزبيدي (555هـ)[113] .

وقد تحفظ ابن هبيرة على تخصيص مساجد او مدارس لاصحاب مذهب معين ، خوفا من التعصب المذهبي وحرمان طلبة العلم من المذاهب الاخرى من الاستفادة من تلك المدارس سيما اذا كان بها شروط تقيد الدارسين فيها[114] ، ولعله اشار بذلك الى المدرسة النظامية التي خصصت للمذهب الشافعي .

ورتب ابن هبيرة في مدرسته عدد من الفقهاء والقراء واجرى عليهم المعاليم ، واول من اسند اليه التدريس فيها الفقيه الحنبلي ابو الحسن علي بن محمد الزيتوني البغدادي (ت586هـ) وناظر وافتى ايضا[115] ، ودرس بها الفقيه الحسين بن المبارك سراج الدين البغدادي (ت 631هـ) وهوممن تفقه على مذهب احمد ، وله تصانيف منها كتاب البلغة في الفقه ، ووصف بانه فقيها فاضلا دينا خيرا حسن الاخلاق ، حدث ببغداد ودمشق وغيرها وسمع منه خلق كثير[116] .

---

[109] ينظر كتابه الافصاح ، ج1 ، على سبيل المثال الصفحات : 27 ، 39 ، 199 ، 287-288 ؛ وينظر الذهبي : سير ، 427/20-428 ، 251-252 ، ابن رجب : الذيل ، 254/1 ؛ Laoust: Le Hanbalism ,P: 109 .

[110] ابن رجب : الذيل ، 253/1 .

[111] ينظر: ابن رجب : الذيل ، 254/1-257 ، 263-267 ، ذكر ذلك نقلا عن ابن المارستانية الذي الف كتابا في سيرة الوزير ابن هبيرة وهو في عداد الكتب المفقودة .

[112] ابو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين، الجزء الاول، دار الجيل (بيروت ،1287هـ) 141/1 .

[113] ابن رجب : الذيل ، 251/1 ؛ Laoust: Le Hanbalism ,P: 109 .

[114] ابن رجب: الذيل ، 279/1-280 ؛ علال : الحركة العلمية ، ص203.

[115] ابن الجوزي : المنتظم ، 203/10 ؛ ابن الفوطي : تلخيص ، ج4، ق3 ، ص581 .

[116] ابن الفوطي : تلخيص ، ج4، ق3 ، ص581 ؛ الذهبي : سير ، 358/22 ؛ ابن رجب : الذيل ، 188/2 .



وقد خربت مدرسة ابن هبيرة بعد وفاته والمحنة التي لحقت باسرته سنة 561هـ ، حيث صودرت اموالها واوقافها وبيعت كتبها[117] ، ولهذا لم يذكر ابن جبير اثناء زيارته لبغداد سنة 580هـ وجود مدرسة بالجانب الغربي من بغداد[118] .

وبهذا يكون ابن هبيرة قد اضطلع بدور فكري مهم كانت مدرسته احدى واجهاته ، فضلا عن مجالسه ومؤلفاته .

مدرسة ابن بكروس :

وهي من مدارس الحنابلة ببغداد الشرقية بدرب القيار ، انشاها الفقيه الحنبلي ابو العباس احمد بن محمد بن المبارك بن احمد بن بكروس الدينوري البغدادي المعروف بـ ابن الحمامي(ت573هـ) كان فقيها زاهدا عابدا مفتيا ، تفقه على جماعة منهم فخر الدين بن تيمية ، وروى عنه الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي[119] .

درس في هذه المدرسة فقهاء من اسرة ابن بكروس ومنهم اخوه علي بن محمد بن المبارك(ت576هـ) وهو من فقهاء الحنابلة افتى ودرس وناظر وله مصنفات في المذهب منها رؤوس المسائل والاعلام[120] ، كما درس فيها ابنه ابراهيم بن علي بن محمد بن المبارك بن احمد بن بكروس(ت611هـ) الذي تفقه على ابيه وعمه ودرس وافتى وناظر وعني بالحديث وكتب الكثير[121] ، ودرس فيها ايضا الفقيه الزاهد ابو الغنائم عبد الرحمن بن جامع بن غنيمة البغدادي(ت582هـ) تولى مدرسة ابن بكروس بعد موته ، وكان فقيها مناظرا في مذهب احمد عارفا بالخلاف ، حدث عنه الشيخ موفق الدين بن قدامة المقدسي واجاز للخليفة الناصر لدين الله[122] ، وتفقه بهذه المدرسة عدد من الفقهاء[123] ، وقد عمرت اكثر من ربع قرن من الزمان[124] .

[117] سبط ابن الجوزي : مرآة ، 240/8 ، 261 ؛ رؤوف : مدارس بغداد ، ص166-167 .
[118] ينظر: رحلة ابن جبير، ص283 .
[119] ابن الجوزي : المنتظم ، 279/10 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 218/8 ؛ الذهبي : المختصر المحتاج اليه ، 206/3 ؛ ابن رجب : الذيل ، 338/2 . ودرب القيار من محال شرقي بغداد المهمة سكنها جماعة من العلماء ونشات فيها مدرستان . رؤوف : مدارس بغداد ، ص171.
[120] ابن رجب : الذيل ، 348/1.
[121] الذهبي : تاريخ الاسلام ، حوادث (611هـ-620هـ) ص65 .
[122] ابن رجب : الذيل ، 353/1-354 .

مدرسة بنفشا (المدرسة الشاطئية) :

وهي المدرسة التي انشاتها بنفشا زوجة الخليفة المستضيءبامرالله (566هـ-575هـ) وهي بالاصل دارا للوزير ابن جهير وزير الخليفة المقتفي ، على شاطيء دجلة بباب الازج ، فاستملكتها بعد وفاته وجعلتها مدرسة للحنابلة[125] ،واوكل التدريس بها اول الامر الى الفقيه ابي جعفر الصباغ[126].

وتعد هذه ثاني مدرسة للحنابلة تنشأ برعاية من الدولة ، واصبح لها دور فكري مهم منذ سنة 570هـ عندما سلمت الى المؤرخ والواعظ ابن الجوزي(597هـ) للتدريس بها والاشراف عليها ، فالقى فيها اول دروسه في الاصول والفروع بحضور كبار ارباب الدولة والفقهاء والقضاة وجمع غفير من الناس[127] .

ويبدو ان الخلافة كانت تعول على ابن الجوزي ومدرسته للقيام بدور فكري يصب في دعم توجهاتها الفكرية وتقوية المذهب السني ، ففي سنة 571هـ كتب على حائط المدرسة " وقفت هذه المدرسة الميمونة الجهة المعظمة الشريفة الرحيمة بدار الرواشني في ايام سيدنا ومولانا الامام المستضيء بامرالله امير المؤمنين على اصحاب الامام احمد بن حنبل وفوضت التدريس بها الى ناصر السنة ابي الفتح ابن الجوزي "[128] ، مما يشير من جهة اخرى الى مكانة الحنابلة في هذه المرحلة واهتمام الخلافة بمنهجهم الفكري .

وكان لهذه المدرسة دورها العلمي والفكري من خلال دروس ابن الجوزي ومجالسه التي كان يحضرها ارباب الدولة والعلماء والعامة ومكانته العلمية في الوعظ والتدريس ، مما سياتي الحديث عنه لاحقا .

---

[123] ينظر: رؤوف : مدارس بغداد ، ص175.
[124] رؤوف : مدارس بغداد ، ص171 ؛ علال : الحركة العلمية ، ص203.
[125] ابن الجوزي : المنتظم ، 10/124-125 ، 253 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 8/511 ؛ ابو شامة : الذيل ، ص29 ؛ ابن الساعي : نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء، تحقيق: مصطفى جواد، دار المعارف (مصر، د ت) ص111-114 .
[126] ابن رجب : الذيل ، 1/406 .
[127] ابن الجوزي : المنتظم ، 10/252-253 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 8/406 ؛ ابن كثير: البداية ، 12/291 .
[128] ابن الجوزي : المنتظم ، 10/258 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 8/326 ؛ ابن رجب : الذيل ، 1/406-407 .

كما كانت تستنسخ في هذه المدرسة الكتب والمؤلفات العلمية ومنها كتاب الانساب المتفقة في الخط المؤتلفة في النقط والضبط لمحمد بن طاهر المقدسي[129]، وقد اندثرت هذه المدرسة في العصرالمغولي[130].

مدرسة ابن الجوزي :

انشأ هذه المدرسة المؤرخ الواعظ ابن الجوزي بدرب دينار في الجانب الشرقي من بغداد ، سنة 570هـ وذكر انه في يوم افتتاح المدرسة القى في اول مجلس له " اربعة عشر درسا من فنون العلم "[131]، ورغم اهتمام ابن الجوزي بالمدارس وتدريسه في اكثر من مدرسة الا انه كان ينبه طلبة العلم ويحذرهم من الاعراض عن العلوم الشرعية والاتجاه نحو علوم الكلام والجدل وتك التردد الى المساجد واقتناعهم بالمدارس والالقاب[132].

وصار لمدارس ابن الجوزي ومجالسه العلمية والوعظية شان كبير وتاثير في فكر وثقافة عصره ، وذلك بسبب ماوصل اليه من شهرة ومكانة علمية وكثرة مؤلفاته وتنوعها في مختلف صنوف العلم وسعة امكانياته وقدراته الفكرية واقبال الناس على مجالسه ، وارتفاع شان الحنابلة في زمانه ، فضلا عن مكانته المرموقة لدى الخلافة.

ويبدو ان هذه المدرسة كانت واسعة الامر الذي يبينه كثرة من يحضر الدروس فيها ، يصف ذلك ابن الجوزي فيقول في حوادث سنة574هـ:" وتكلمت يوم السبت مفتتح رمضان في مدرستي بدرب دينار فكان الزحام خارجا عن الحد حتى غلق الابواب ، وقصت ثلاثون طائلة وتاب خلق من المفسدين"[133]، ومما يدل ايضا على اتساعها ماذكر عن وجود مئذنة بها ، وكان من غير المعتاد ان تنشأ الا في كبرياتها ، كما روى المؤرخ ابن الساعي[134].

---

129 رؤوف : مدارس بغداد ، ص189-190 .

130 رؤوف : مدارس بغداد ، ص190 .

131 ابن الجوزي : المنتظم ، 250/10 ؛ ابن رجب : الذيل ، 405/1 . درب دينار: محلتان كبيرتان بشرق بغداد تنسب الى دينار بن عبدالله احد موالي الخليفة هرون الرشيد . عن رؤوف: مدارس بغداد ، ص176 .

132 ابن الجوزي: صيد الخاطر ، ص362 .

133 المنتظم ، 285/10 .

134 الجامع المختصر في عيون التواريخ والسير، تحقيق: مصطفى جواد ، الطبعة السريانية الكاثوليكية (بغداد،1934م) 65/9 ؛ رؤوف : مدارس بغداد ، ص182 .

ولفهم اهمية هذه المدرسة ودورها العلمي والفكري لابد من معرفة مكانة مؤسسها ابن الجوزي : فهو جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي ، يرجع نسبه الى ابي بكر الصديق (رض) حافظ وفقيه ومفسر وواعظ ومؤرخ ، امام الحنابلة في عصره (ت597هـ) ، انشغل بطلب العلم منذ صباه ، فتفقه على كبار فقهاء عصره امثال ابي بكر الدينوري وابن الفراء وسمع الحديث من ابي الفضل بن ناصر وقرأ القران والوعظ على شيخه ابن الزاغواني واللغة عن ابي منصور الجواليقي ، وله اكثر من ثمانين شيخا ، واشتغل بمعظم فنون العلم وله فيها كتب كثيرة بلغت المئات ، وكان يقول:"كتبت باصبعي هاتين الفي مجلدة "[135]، وعظ منذ صباه حتى اتقن الوعظ وبرع فيه وكذلك في التفسير والتاريخ ، وحدث وروى الكثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه الناس اكثر من اربعين عاما[136]. فكان شخصية متعددة المواهب[137]، اثرت في الاتجاهات الفكرية لذلك العصر وثقافته .

ومارس ابن الجوزي تاثيرا فكريا ودينيا وثقافيا على طلبته ومستمعيه سيما في مجال الوعظ تلك المهمة التي برع فيها غاية البراعة وقيلت بحقه اجمل عبارات الثناء والاطراء في قوة اسلوبه وقدرته على التاثير في النفوس ، وكان يعظ ايام المناسبات الرسمية والدينية وباماكن رسمية كجوامع القصر والمنصور والرصافة وباب بدر وتربة ام الخليفة ، وكان يحضر مجالسه من رجال الدولة والعلماء والمثقفين والعامة[138] .

وقد حققت مجالس ابن الجوزي الوعظية غاياتها في الاصلاح الاجتماعي والخلقي والديني والفكري ، وكان المئات ان لم نقل الالاف ممن يحضرون مجالسه ومن مختلف الفئات والمذاهب والديانات ينتفعون بكلامه ويتاثرون بمواعظه فيتوب عنده خلق من الناس واهل الضلالة ويسلم عنده من اليهود والنصارى ، ويصور

[135] ينظر: سبط ابن الجوزي : مرآة ، 481/8-489 ؛ ابوشامة : الذيل ، 21-22 ؛ ابن رجب : الذيل ، 410/1-415 ؛ ابن كثير: البداية ، 28/13-29 .

[136] سبط بن الجوزي : مرآة ،482/8 .

[137] Laoust: Le Hanbalism ,P: 112 .

[138] ينظر على سبيل المثال : ابن الجوزي: المنتظم ، 243/10 ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة ، 482/8 ؛ ابوشامة : الذيل على الروضتين ، غير بنشره السيد عزت عطار الحسيني، دار الجيل، ط1 (بيروت، 1974) ص21 ؛ ابن كثير: البداية ، 29/13 ؛ ابن رجب: الذيل ، 406/1-416 .

ابن رجب تلك المشاهد بقوله :" ان مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير ولم يسمع بمثلها ، وكانت عظيمة النفع ، يتذكر بها الغافلون ويتعلم بها الجاهلون ويتوب فيها المذنبون ويسلم فيها المشركون ... "[139] ، وفي كتابه القصاص والمذكرين يشير ابن الجوزي الى الاثر الديني والاصلاحي لمواعظه فيقول:" مازلت اعظ الناس واحرضهم على التوبة والتقوى ، فقد تاب على يدي الى ان جمعت هذا الكتاب اكثر من مئة الف رجل ، وقد قطعت من شعور الصبيان اللاهين اكثر من عشرة الاف طائلة ، واسلم على يدي اكثر من مئة الف"[140] ، والارقام هنا خير شاهد لتتكلم عن مدى تاثير تلك المواعظ واهميتها في الاصلاح والتغيير ، وان نرى فيها مبالغة في العدد .

ولم تكن تلك المجالس مجرد مواعظ حماسية تثير العاطفة والشجون وتذكر النفوس باخطائها بشكل مرحلي او مؤقت ، بل كانت مجالس علمية حققت اغراضها في نشر العلوم الدينية وايصالها الى الناس ، فقد فسر ابن الجوزي القران كله على المنبر في مجالس الوعظ ويقول:" ماعرفت ان واعظا فسر القران كله في مجلس الوعظ منذ نزل القران "[141] ، وتناول في وعظه مختلف الموضوعات التي تخص شؤون العامة الدينية والدنيوية واصلاح احوالهم الاجتماعية[142] .

وقد افرد المؤرخون والرحالة سطورا في مؤلفاتهم اثنوا فيها على مواعظ ابن الجوزي وقوة اسلوبه وبلاغته وتاثيره[143] ، وقد اجمل ذلك كله شاهد عيان زار بغداد سنة580هـ ، وحضر مجالس الوعظ والدروس فيها ، وهو الرحالة ابن جبير، فقال واصفا مجلس وعظ لابن الجوزي وما يدور فيه :" ... ثم شاهدنا ... الامام الاوحد جمال الدين ابي الفضائل بن علي الجوزي ... اية الزمان وقرة عين الايمان ، رئيس الحنبلية ... فحدث ولاحرج عن البحر ، وهيهات هيهات ليس الخبر عنه كالخبر ... ثم انه اتى بعد الفراغ من خطبته برقائق من الوعظ ، وايات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الانفس احتراقا ، ... واعلن

[139] ابن رجب: الذيل ، 410/1 .

[140] تحقيق : مارلين سوارتز ، دار المشرق ، (بيروت ،1971) ص 145 ؛ ابن رجب: الذيل ، 410/1 ؛ قارن: سبط بن الجوزي : مرآة ،482/8 ؛ ابوشامة : الذيل ، ص21 .

[141] المنتظم ، 251/10 ؛ سبط ابن الجوزي: مرآة ، 326/8 ؛ ابن رجب : الذيل ، 406/1.

[142] ينظر لذلك : ابن الجوزي : صيد الخاطر ، ص55-58 ؛ القصاص والمذكرين ، ص139-142 .

[143] ينظر: سبط بن الجوزي : مرآة ، 482/8 ؛ ابن رجب: الذيل ، 410/1-414 ؛ ابن كثير: البداية ،28/12 .

التائبون الصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ... وفي اثناء مجلسه ذلك يتدرون المسائل ، وتطير اليه الرقاع فيجاوب اسرع من طرفة عين ..."[144] ، ووصف له مجلسا اخر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة وسماه الحبر المتكلم ، فقال:" ثم سلك سبيله في الوعظ ... فارسلت وابلها العيون وابدت النفوس سر شوقها المكنون وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين وبالتوبة معلنين ..." ، ثم يقول:" وماكنا نحسب ان متكلما في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما اعطي هذا الرجل " [145].

ولابن الجوزي اليد الطولى في التدريس فقد درس معظم ماتعلمه من فنون العلم ، وجمعت له خمسة مدارس في بغداد تدريسا واشرافا[146] ، ويقول في احداث سنة 574هـ ملخصا دوره العلمي والفكري والاصلاحي:" وصار لي خمس مدارس وهذا شيء مارآه الحنابلة الا في زمني ، ولي مئة وثلاثون مصنفا الى اليوم ، وقد تاب على يدي اكثر من مئة الف ، وقطعت اكثر من عشرة الاف طائلة ، ولم ير الواعظ قط مثل مجلسي جمع الخليفة والوزير وصاحب المخزن وكبار العلماء"[147].

وصار لابن الجوزي دور فكري فاعل ومؤثر ليس على المستوى الشخصي فحسب بل على المستوى الرسمي ، حيث تلقى الدعم والتاييد من قبل الخلافة لتعزيز سياستها في تقوية ونصرة المذهب السني الذي احتل فيه الحنابلة موقعا مؤثرا ، وتبنت الخلافة منهجهم ، فشجع الوزير الحنبلي ابن هبيرة – في عهد الخليفة المستنجد – جهود ابن الجوزي ودعاه الى عقد مجلس للوعظ في داره كل جمعة[148] ، واستعانت الخلافة بابن الجوزي لمواجهة التيارات المناهضة لها ومحاربة اصحاب البدع وتوجيه الراي العام لذلك ، ومنحته صلاحيات واسعة لمعاقبتهم ، واصدر الخليفة سنة571هـ امرا بذلك قرأه ابن الجوزي على المنبر[149] ، فكان بمثابة

[144] رحلة ابن جبير ، ص 271-273 ؛ وينظر: ابن رجب : الذيل ، 410/1 -411.
[145] رحلة ابن جبير ، ص 273-275 ، 276 .
[146] ينظر: ابن الجوزي: المنتظم ، 252/10-258 ، 283-284 ؛ ابن رجب : الذيل ، 406/1 ، 408 .
[147] المنتظم ، 284/10 ؛ ابن رجب: الذيل ، 409/1 .
[148] ابن الجوزي : المنتظم ، 10 /251 ؛ ابن رجب : الذيل ، 404/1 .
[149] ابن الجوزي: المنتظم ، 259/10 ؛ ابن رجب : الذيل ، 407/1 . ومن العقوبات التي هدد بها ابن الجوزي اصحاب البدع ، هدم الدار او الحبس او التوبيخ والتعزير ، وقد نفذ ابن الجوزي مثل هذه الأجراءات مع الركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الكيلاني؛ حيث قبض عليه ، واحرقت كتبه سنة 588هـ /1192م بمحضر من ابن الجوزي لأحتوائها على علوم الفلسفة والنجوم. ينظر: ابن المستوفي : تاريخ اربل ، تحقيق :

الواجهة الفكرية والثقافية للدولة التي اوكلت له من المهام ماجعله اشبه بالرقيب على ثقافة وافكار عصره .

وقد علا شأن الحنابلة في هذه المرحلة وتمتعوا بمكانة ونفوذ واسعين في عهد الخليفة المستضيء ، الذي امرعام 574هـ بعمل لوح ينصب على قبر الامام احمد بن حنبل كتب عليه:" هذا قبر تاج السنة وحيد الامة العالي الهمة العالم العابد الفقيه الزاهد الامام ابي عبدالله احمد بن محمد بن حنبل الشيباني رحمه الله"[150].

كانت تلك ابرز واهم مدارس الحنابلة في بغداد خلال العصر السلجوقي ، وهناك مدارس اخرى لكنها كانت اقل شانا وذكرا من سابقتها ، مع ندرة المعلومات الواردة عنها في المصادر التاريخية ، ومنها : مدرسة ابن العطار التي انشاها ابو القاسم نصر بن منصور بن الحسين بن العطار الحراني البغدادي (ت595هـ) بدرب القيار شرقي بغداد ، ومؤسسها هو والد ظهير الدين منصور استاذ دار الخليفة المستضيء [151]، وذكر رؤوف مدرسة اخرى هي المدرسة الشاطئية بباب الشعير على الشاطيء الغربي لدجلة ، ولايعرف بالتحديد تاريخ تاسيس المدرسة ويبدو انها وجدت بعد زيارة ابن جبير لبغداد سنة 580 هـ والذي لم يذكر أي مدرسة بالجانب الغربي ، وكل ماذكرعنها انه درس بها الفقيه عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي(ت611هـ) ، وانها سلمت بعده الى ابن عمه ابي صالح نصر بن ابي بكر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي(ت633هـ)[152] ، وهناك خلط بين هذه المدرسية والمدرسة الشاطئية التي انشاتها بنفشا بباب الازج وربما هما مدرسة واحدة ، فقد ذكر ابن المستوفي في ترجمة الفقيه عبد السلام الجيلي انه درس بالمدرسة الشاطئية التي اوقفتها بنفشا بدار الشعير[153] ، وهناك مدرسة اخرى هي مدرسة ابن الصقال التي انشاها الفقيه المناظر ابو اسحق ابراهيم بن محمد بن الصقال الحنبلي(ت599هـ)[154]، وذكر

سامي بن السيد خماس الصفار ، المركز العربي للطباعة والنشر ، بيروت ، دار الرشيد (بغداد،1980م) ق587/2 ؛ الذهبي: تاريخ الأسلام ، حوادث (611هـ-620هـ) ، ص70-71 ؛ ابن رجب :الذيل 425/1-426.

150 ابن الجوزي: المنتظم ، 283/10-284 .

151 سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، 230/8 ؛ ابن الساعي : الجامع المختصر ، 14/9 ؛ رؤوف : مدارس بغداد ، 193-194 .

152 ينظر: مدارس بغداد ، 191-192 .

153 تاريخ اربل ، ق1 ،ص587 ؛ وينظر: علال الحركة العلمية ، هامش6 ، ص203 .

154 ينظر : ابن رجب: الذيل 86/2 .

علال انها كانت مدرسة اهلية قليلة الشان واخبار نشاطها العلمي نادرة[155]، وللحنابلة مدارس اخرى مهمة في بغداد اسست بعد نهاية العصر السلجوقي وهي المدرسة المجاهدية والمدرسة المستعصمية[156]، وهما خارج نطاق هذا البحث .

خلاصة تاثير المدرسة الحنبلية في الفكر الديني :

واذا اردنا ان نلخص دور المدرسة الحنبلية بشكل عام واثرها في الساحة الفكرية الدينية ، فمن الصواب القول ان هذه المدرسة بمنهجها النصي قد عملت على حفظ العقيدة الاسلامية والسنة النبوية من انتهاكات التيار العقلي ومنعوا العقل من ان يتسلط على قدسية النصوص ، فحافظوا بذلك على الثوابت العقدية واصول الاسلام الاولى ، وقد اسهم انتشار المدارس الحنبلية الخاصة في بغداد بتطوير فكر هذه المدرسة من خلال الدور الذي قامت به في نشر الفكر الحنبلي في بغداد وخارجها ودور مدرسيها وطلبتها الذين حملوا هذا الفكر وعملوا على نشره .

ورغم ماتعرضت له المدرسة الحنبلية من انتقادات ، الا انها ظلت المدرسة القوية والفاعلة الممثلة للمذهب السني والمدافعة عنه بحماس شديد ، يقول سيد الاهل :" ... ولقد وقف اصحاب احمد كالحراس على التراث المجيد ، يصونونه من كل عابث ويدفعون عنه يد كل سارق "[157]، وتكمن اهمية المدرسة الحنبلية في كونها مدرسة فقهية عقدية تمسكت بمنهجها فرعا واصولا ولم تجنح الى غيره ، وفي هذا يقول باخيل ال بابطين :" ... وبعد تبني الشافعية للفكر الاشعري العقدي ، وتبني المذهب الحنفي للاعتزال عقديا ، لم يبق سوى الحنابلة للدفاع عن السلفية الاولى "[158]، ولا يخفى ماكان للاشاعرة – وهم من اهل السنة والجماعة – من دور في مناهضة المعتزلة دفاعا عن العقيدة ، الا انهم انتهوا الى نفس النتيجة التي سعى اليها المعتزلة ، حيث انهم وان قدسوا النص لكنهم أولوا اللفظ الذي نشأ فيه النص فصرفوا النصوص عن ظاهرها ولان المذهب الاشعري بنى كثيرا من مقدماته على مذهب المعتزلة ، لذلك فان الحنابلة تولوا قيادة اهل السنة لاحقا ،

155 الحركة العلمية ، ص205 .

156 ينظر: رؤوف : مدارس بغداد ، ص195-204 ؛ واضاف علال المدرسة القرآنية . الحركة العلمية ، ص205-206 .

157 عبد العزيز : شيخ الامة احمد بن حنبل ، ط1، دار العلم للملايين (بيروت،1972م) ص348.

158 ميراث الازمنة الصعبة ... ، ص260 .

وان النجاح الذي حققه الاشاعرة هو استقطابهم لعدد كبير من العقلانيين باعتبارهم مذهبا وسطا بين المعتزلة واهل السنة ، مما ساهم في اضعاف جاذبية المذهب الاعتزالي[159] .

واخيرا فان المدرسة الحنبلية كان لها دور في المحافظة على التوازن الفكري وعدم تفوق التيار العقلي ، سيما بعد التحول الذي احدثه نشوء النظامية – وتبنيها للاشعرية – في موازين القوى الفكرية[160] .

خاتمة :

ومن خلال هذا العرض لمدارس الحنابلة في بغداد خلال العصر السلجوقي نلمس بوضوح التاثير العلمي والفكري لهذه المدارس ودورها في تنشيط الحركة العلمية والفكرية في بغداد من خلال دور مدرسيها وطلبتها .

وان عدد هذه المدارس يشكل ثلث مدارس بغداد ، اسست معظمها خلال العصر السلجوقي ، اثنين منها كانت مدارس رسمية انشأتها جهات مرتبطة بالدولة كمدرسة الوزير ابن هبيرة والمدرسة التي انشأتها زوجة الخليفة المستضيء ، والقسم الاكبر منها اسس بجهود علماء المذهب واخرى انشأت من قبل شخصيات لها مكانة ونفوذ تشجيعا منها لهذا المذهب .

وشكلت هذه المدارس بطبيعتها تنوعا فكريا داخل اطار المذهب الحنبلي مابين محافظة وتوفيقية وصوفية [161].

وقد تفاوت تاثير هذده المدارس ودورها واشتهر منها مدرسة المخرمي التي عرفت فيما بعد بمدرسة الكيلاني ، ومثلت نمطا جديدا داخل المدرسة الحنبلية وهو النمط الصوفي ، والتي كان لها تاثير فكري اصلاحي فاعل في بغداد من خلال دور الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي استطاع ان يؤثر في المجتمع البغدادي بمختلف فئاته في دروسه ومجالس وعظه التي نالت استحسان الناس واقبالهم ، وكذلك مدرسة الوزير العالم ابن هبيرة التي لعبت دورا في المحافظة على العقيدة

[159] باخيل ال بابطين : ميراث الازمنة الصعبة ... ، ص259 .
[160] سلام ، ايمن شاهين : المدارس الاسلامية في مصر في العصر الايوبي ودورها في نشر المذهب السني ، اطروحة دكتوراه غير منشورة (جامعة طنطا ، 1999) ص45 .
[161] ينظر : باخيل ال بابطين : ميراث الازمنة الصعبة ... ، ص261 -272

الاسلامية والسنة النبوية وبشكل موجه واخيرا مدرسة او مدارس ابن الجوزي التي انشاها واشرف عليها والتي بلغت خمسة مدارس ، مارست دورا فكريا وعلميا واضحا ، وكان لابن الجوزي نفوذه وتاثيره من خلال دروسه ومجالس وعظه التي حضرها الخاص والعام ووجه من خلالها الفكر الديني لعصره واثر فيه ومنحته الخلافة صلاحيات واسعة لتنفيذ برنامجها الفكري الامي الى تقوية المذهب السني ومحاربة البدع والتيارات الفكرية المناهضة ومحاربة .

واخيرا فان هذه المدارس كانت واجهة فكرية للمدرسة الحنبلية بشكل عام والتي مارست دورا مهما في تعزيز المذهب السني ببغداد والدفاع عنه فقها وعقيدة ، وانها لم تكن مجرد مدارس لنشر العلم والتعليم بل كانت مدارس ذات ابعاد فكرية ولها رسالة تهدف من خلالها الى نشر فكر ومنهج ديني اصيل بالعودة الى الاصول الاسلامية الاولى .

